الفصل الثالث

الانفجار الكبير

- اقرأ
- من وحى اقرأ : سمات فريدة
- الولادة الكاملة للحضارة الإسلامية
- المنهج والحياة
- الوعي بالحضارة وإدراك التغيير
- بين الكمال والنقص

obeikandl.com

obeikandl.com

﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾

أين هي نقطة الانفجار الكبير في الحضارة الإسلامية؟

ارتضى علماء الفلك والفيزياء نظرية أو نموذج الانفجار الكبير Big Bang في تفسير نشأة الكون ، والتي وضعها الفيزيائي جورج جاموف .

وفي هذه النظرية كانت كتلة الكون ، قبل حدوثه وتكوينه ، مجتمعة مكثفة كلها في بقعة أو نواة كونية واحدة هائلة الكثافة جبارة الجاذبية ، ثم حدث انفجار كبير ، بكن الإلهية ، فتدافعت مادة النواة الكونية الأولى في كل الاتجاهات بفعل الطاقة الهائلة التي انطلقت مع هذا الانفجار الكبير .

ومع الانفجار الكبير بدأ الكون في التكون والتشكل ، وبدأ الزمان وقوانين الطبيعة ، وبدأ ما يمكن معرفته ودراسته ، وقبله لم يكن زمن ولا قانون ، ولا سبيل لمعرفة ما سبق لحظة الميلاد الأولى هذه .

وترسخت هذه النظرية باكتشاف الطاقة التي تدفقت مع الانفجار الكبير وما زالت سارية في الكون تعادل طاقة الجاذبية بين مكوناته وتؤدي إلى تمدده ، وبرصد الإشعاعات الغزيرة التي انطلقت مع الانفجار وتتدفق في الكون ودراستها وتحليلها يمكن رؤية لحظة الميلاد الأولى للكون ومعرفة ملامحها .

ونستعير هذه النظرية الكونية لنتساءل : أين هي نقطة ولحظة الانفجار الكبرى التي نشأت منها وفيها الحضارة الإسلامية أو التغيير الإسلامي ولا يزال أثرها ساريًا وباقيًا في كل ما تنتجه هذه الحضارة وتثمره ؟

هذا سؤال مهم جدًّا ، ليس فقط لتأريخ وتحديد متى بدأت الحضارة الإسلامية ، ولكن لأن الإجابة عليه تتصل اتصالاً وثيقًا بالموقف الذي يقفه العالم الإسلامي اليوم يتلفت باحثًا عن الحضارة ــ المنجزات وفي أي السبل يسلك ليصل إليها .

فطريقة الإجابة على هذا السؤال تتحدد بالأرضية التي يقف عليها صاحب الإجابة والنبع الذي ينهل منه، ولا نغالي إذا قلنا إن هذه الإجابة نفسها تحدد منهج صاحبها في النظر إلى الحضارة ومعنى الرقي ، وإلى الأشياء والعلاقات بينها ، والى الآخرين أممًا وأفرادًا ، بدءًا من الاحتفال والاحتفاء بالغزو النابليوني لمصر وتمجيده ، إلى رد الفعل تجاه العولمة ، إلى مدى الثقة بالوسيط الأمريكي في عملية السلام ، إلى الموقف من ثورة المعلومات وكيفية التعامل معها ، إلى كيف نبعث النهضة في العالم الإسلامي وما هى الخطوة الأولى فيها وما هو الطريق الذي يجب أن نسير فيه لنصل إليها .

إذًا الإجابة على هذا السؤال هي مفترق طرق في فهم ما هي الحضارة وكيف تكون .

هناك إجابتان .

الإجابة الأولى : هي إجابة الغربيين ، وهم لا يعنوننا ، والمستغربين الذين يحملون أسماءنا وسيوفهم على رقابنا ، في سلسال طويل يبدأ من طه حسين وأحمد لطفي السيد ولا ينتهى بالعراقي وأبو زيد وعصفور .

هؤلاء هم أبناء الغرب ، عقولهم منه ، وقلوبهم فيه ، ونفوسهم تهوي إليه ، لذلك لا يرون الحضارة إلا في الغرب ولا التقدم والنهضة إلا بالسير على دربه واتباع خطاه وتلمس ما يتساقط منه من فتات .

ولأن أبناء أي حضارة أو ثقافة ، بمعنى عالم له خصائص مميزة ، لابد أن يدافعوا عنها تلقائيًا بحكم الولاء والانتماء والتكوين ، وأن يشيدوا بها ويُعلوا من شأنها ويرفعوا لواءها ، فهؤلاء يرفعون راية الغرب في كل ميدان يمكن نصره وإبراز فضله فيه .

ومن ثَم فنهضة الشرق عندهم لا تكون إلا باتباع الغرب ، ولكي يصلوا إلى ذلك في عقول الناس فلا أسرع ولا أسهل نفاذًا في العقول والنفوس من أن يكون الإسلام نفسه بنى حضارته على امتصاص ثقافة اليونان وعلومها والامتزاج بها .

فالدجل من الطراز الرفيع يقتضي أن تكون منطقة الخلق والإبداع ونقطة انفجار الحضارة الإسلامية هي نقطة التقائها باليونان ، الغرب القديم .

على أن الأهم والأخطر هو أن كثرة الإلحاح على هذا الدجل وإشاعته بكل وسيلة وخلق جو عام مشبع بهذه النظرة وهذه الرؤية ، عملاً بمنهج جوتفريد جوبلز وزير الدعاية النازية : اكذب ، اكذب دائمًا ، فلا بد أن يبقى من كذبك شيء ، أدى إلى تأثر قطاعات عريضة من المسلمين عامة ، بل ومن مفكرين يحسبون على الإسلام بهذه النظرة ، فأصبح مولد الحضارة الإسلامية عندهم مرتبطًا ببدء الترجمة ونقل العلوم والفلسفات عن اليونان أو غيرها إلى عالم الإسلام ، في ذهول تام عن لحظة الميلاد الحقيقية والتكون العظيم للحضارة الإسلامية .

يقول الأستاذ أحمد أمين : «**الآن تستطيع أن تفهم أن الثقافة اليونانية كانت منتشرة في العراق والشام والإسكندرية ، وأن المدارس انتشرت فيها على يد السريانيين ، وأن هذه المدارس وهذه التعاليم أصبحت تحت حكم المسلمين ، وامتزج هؤلاء المحكومون بالحاكمين على الشرح الذي شرحته،فكان من نتائج هذا أن تشبعت هذه التعاليم في المملكة الإسلامية، وتزاوجت العقول المختلفة كما تزاوجت الأجناس المختلفة ، ونتج عن هذا الزواج الثقافة العربية أو الإسلامية ونتجت المذاهب الدينية والفلسفة الإسلامية والحركات العلمية والفنون الأدبية**»[1].

هذا نص خطير ، بل شديد الخطورة ، فقد جعل كل شيء في عالم الإسلام انعكاسًا لامتزاج الثقافة اليونانية التي ترجمها السريان بالإسلام ، من العقلية والثقافة إلى الفلسفة ، إلى العلوم والفنون الأدبية ، إلى ، ويالللغرابة ! ، المذاهب الدينية !

---

(١) الأستاذ أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ١٣٢ .

ومتى؟ في : فجر الإسلام الذي يحدد هو نفسه نهايته بنهاية الدولة الأموية[1]، أي في المائة عام الأولى من تاريخ الإسلام ، إذ الدولة الأموية سقطت سنة ١٣٢ هـ .

ويمكن فهم كيف تَكَوَّن العقل الذي أنتج هذا الكلام والمؤثرات التي أسهمت في تكوينه وتشكيله إذا عُلم أنه أنتجه عام ١٩٢٩م إبان الزحف الكبير على الإسلام من المستشرقين والإنجليز ، ووسائل الإعلام وتكوين العقول في أيديهم ، وأذنابهم مجاذيب الحضارة الذين تم تدجينهم في جامعات الغرب وإعادة شتلهم في المجتمعات الإسلامية ينفثون سمومهم في كل اتجاه وشعارهم المعلن ، كما صكه توفيق الحكيم حين سأل عن تعليقه على دك القوات الفرنسية لدمشق بالمدافع : عاشت حضارة فرنسا ولتذهب دمشق إلى الجحيم!

ولا نحتاج إلى مناقشة هذا المفهوم وهذه الرؤية لتكون الحضارة الإسلامية ، ذلك أن منهجنا ينقضها من أساسها ، ويكفينا شهادة قصيرة : «**فلا يمكن أن تأخذ ثقافة فكر ثقافة أخرى ، فهذا زرع لعضو غريب في جسم غريب ، وإن حدث ظاهريًا فسرعان ما يلفظ كما حدث لزرع الفلسفة اليونانية في جسم الثقافة الإسلامية ، فقد استمرت حينًا ثم لفظت وكان لابد أن تلفظ**»[2].

إذًا ! مرة أخرى ، أين هي لحظة الانفجار الكبير والميلاد الحقيقي للحضارة الإسلامية؟

حسب رؤيتنا للحضارة وأنها التغيير والانتقال من حالة إلى حالة ، وحسب فهمنا لميلاد الحضارة الإسلامية ميلادًا كميلاد الكون في لحظة واحدة ،

---

(١) فجر الإسلام ، ص ١٤٥ .

(٢) دكتور عزت قرنى : الفلسفة المصرية . شروط التأسيس ، ص ٧١ .

كل ما تلاها كان تبعًا لها ، وُجد وتكون ويسير بدفقة الطاقة المتفجرة في هذه اللحظة الأولى ، فلا يوجد حدث يمثل هذا التغيير العظيم ولحظة هذا الانفجار الكبير إلا حدث واحد ولحظة واحدة ، هى حدث ولحظة نزول : ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ .

ففي هذه اللحظة ، ومع هذا الحدث بدأ الميلاد العظيم وانفجرت الطاقة الهائلة وتغير كل شيء ، فلم يعد الكون ولا الإنسان ، في وجوده ومعناه ومنشئه ومسيرته ومصيره ، ولا الدنيا ولا الموت وما بعده ، ولم يعد أي شيء في الوجود بعدها كما كان قبلها .

فهذه واحدة .

والثانية : كيف ؟

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق:١-٥).

﴿ ٱقْرَأْ ﴾ أمر بقراءة الكتاب فيه هداية الإنسان إلى الرشد ، وحمايته من الضلال ، ووصل له بالملأ الأعلى ، وإحياء للروح وعروج بها إلى أصلها عند خالقها ، فهي تصحيح لعلاقة الإنسان بربه .

و﴿ ٱقْرَأْ ﴾ أمر بقراءة الكون في : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ ، يصبح بها الكون مساحة لعقل الإنسان وليس شرًا يفر منه .

و﴿ ٱقْرَأْ ﴾ ثورة ومنهج غير مسبوق في علاقة الإنسان بالكون ، ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ ليس أمرًا بقراءتين منفصلتين ، ولكنه أمر بقراءة واحدة تقع على مفعولين ، الكتاب والكون . فتكون قراءة الكون في هدى الكتاب ، وقراءة الكتاب في سطور الكون ، فلا تعارض بين الكتاب والكون ، وليست القراءة في أحدهما واتباعها إعراضًا عن الآخر ولا نفيًا له .

ففي ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ منهج جديد وتغيير هائل ونسق منفرد فريد يجمع بين الوحي ومصادر معرفة الإنسان الذاتية ، وبين الوحي والعلم ، وبين العروج الى الله وعمارة الكون .

و﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ أمر للإنسان بالعلم من الله عز وجل وإرشاد إليه وحض عليه .

﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ منظومة جديدة وثورة تصحيح في فهم العلاقة بين الله والإنسان والعلم ، فليس الإنسان مقابلاً للإله يقف على نقيض منه ، وليس العلم ضد الألوهية ولا يتوصل إليه إلا بعد نزاع مرير مع الآلهة ورغم أنوفهم كأسطورة بروميثيوس الشهيرة التي سيطرت على نظرة الغرب للعلم وعلاقته بالدين ، ورسختها الصورة التي استقرت عليها المسيحية في ذهن الغرب ، وإنما العلم هبة من الله للإنسان ، هو الذي منحه إياه وأعطاه وسائل الوصول إليه وأرشده ودله عليه .

فـ ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ بما شحنها به أسلوب القرآن المعجز وجاء بها في سياقه هي ثورة كبرى ومنهج جديد وفتح فى إعادة صياغة العلاقة بين الوحي ووسائل معرفة الإنسان الأخرى ، وبين الله والإنسان ، وبين الإنسان والكون ، وبين الآخرة وعمارة الدنيا ، وبين الألوهية والعلم .

وهي إعادة تنسيق لكل الوجود وجمع لكل الموجودات في إطار واحد مترابط متكامل ووضع للإنسان في مكانه المنطقي والصحيح منه .

لذا ، بمعيار حكمنا على الحضارة الذي ارتضيناه ، لا يوجد حدث ولا حادثة ولا ثورة تغييرية في تاريخ العالم كله تستحق أن توصف بأنها لحظة ميلاد الحضارة الكاملة أو الحضارة بمطلق الحضارة سوى لحظة نزول ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ التي أعادت تنظيم الوجود كله واستوعبته كله .

ثم ، يطيب لي أن أقف أمام ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ وقفة نفسية أتمثل فيها معنى الحضارة الحقيقي .

﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ أمر بالقراءة ، وفي داخل هذا الأمر بالقراءة أمر بالتغيير والخروج من حالة إلى حالة ، من الأمية إلى القراءة ، ومن الغيبة وعدم الإدراك إلى الوعي

بالذات ، ومن سكون الانتظار والتلقي وسلبيته إلى فاعلية الفعل وحركته ، ومن الاعتماد على الآخرين وانتظار ما يقولون أو يفعلون إلى المبادرة بالقراءة والفعل وتكوين الذات ، ومن الإحساس بالضعف إلى الإيمان بقدرة هذه الذات على الإنجاز ، ومن الحيرة والتحير وعجز الإرادة إلى القرار والعزم وسمو الإرادة ووضعها في الأشياء .

﴿ اقْرَأْ ﴾ هي منهج حياة ونموذج حضاري متكامل .

* * *

obeikandl.com

من وحي اقرأ
سمات فريدة

الولادة الكاملة للحضارة الإسلامية

إذا علمنا أن ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ هي لحظة الانفجار الكبير للحضارة الإسلامية التي تدفقت من باطنها كل معالم الحضارة الإسلامية وتاريخها ، وتكون بها ومنها النموذج الإسلامي للأشياء وتفسيره لها وإعادة صياغتها ، واندفعت معها طاقة التغيير ، وتركت بصمتها على كل شيء نبع من هذا التغيير ، تماما كما تدفق الكون كله من باطن النواة الكونية الأولى واندفع من انفجارها طاقة استمرار الكون حتى لحظتنا هذه ، إذا علمنا ذلك استبان لنا أول فرق في سلسلة الفروق بين الحضارة والنموذج التغييري الإسلامي وبين غيره من الحضارات أو النماذج التغييرية التفسيرية للوجود .

سلسلة الفروق النوعية لا الكمية ، والمنهجية لا الوصفية بين إطار التغيير وبنية الإنشاء للحضارة الإسلامية وبين إطار التغيير ونموذجه في غيرها من الحضارات .

هذا الفرق الأول هو أن الحضارة الإسلامية والنموذج التغييري التفسيري البنائي الإسلامي للكون والإنسان والعلم والدنيا والآخرة والمخلوقات وعلاقتها بالألوهية قد ولد وتكون وخرج مكتملاً للوجود مرة واحدة بصورة انفجارية .

فمنذ اللحظة الأولى فى الحضارة الإسلامية ، لحظة الانفجار ، و﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ تحمل كل عناصر الرؤية والنموذج الإسلامي للوجود كله .

ففيها إنشاء لصلة جديدة بين الوحي والكون ، وبين الوحي ووسائل المعرفة الأخرى ، وتغيير لمفهوم العلم وعلاقته بالألوهية وموقف الإنسان منه ، وفيها

ثورة في فهم صلة الإنسان بربه وموقعه من الكون وموقفه منه وعلاقته بكل ما فيه ، وفيها منهج فريد لربط الدنيا بالآخرة في إطار متناسق تتكامل فيه الدنيا مع الآخرة وتفضي إليها ، ولا تتوازيان توازيًا يكون معه طلب إحداهما نفيًا للأخرى .

بإيجاز : ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ هي نموذج ومنهج متكامل يحمل في داخله كل الوحدات البنائية للتغيير الإسلامي أو الحضارة الإسلامية ، أو هى نواة حضارية هائلة الكثافة تحوي داخلها الحضارة الإسلامية برمتها ، أو بصورة مبسطة : ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ هي ماكيت للنموذج الإسلامي من الحضارة .

وليست كذلك كل الحضارات ، فهذه سمة فريدة تتميز بها الحضارة الإسلامية ولا يشاركها فيها غيرها .

فالحضارة الغربية ، مثلاً ، لم تنفجر مرة واحدة ، ولم تتشكل وتستقر رؤيتها ونموذجها للحياة والكون والإنسان والدين والألوهية والعلم إلا على مساحة شاسعة من الزمن ، وبتحولات تراكمية بطيئة ، كل زمان يضيف لمحة أو يعدل فكرة أو يعيد صياغة رؤية حتى وصلت معالم التصور الغربي للوجود إلى وضعه الحالي القابل للتعديل باستمرار .

وهذا التحول والتغير التراكمي البطيء لم يكن انقلابًا ثوريًّا شاملاً على الأوضاع السابقة ، وإنما خرج من رحمها شيئًا فشيئًا ولم ينفصل عنها تمامًا ، بل ظلت الأوضاع والرؤى السابقة على التغير والتحول سارية فيه تتلبس به ويتلبس بها حتى برز التكون والنموذج ، ونقول بثقة : ولم يكتمل حتى الآن .

« فالنظرة الجديدة إلى الحياة بدأت بوادرها في القرن الرابع عشر . . . والقرون الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر كانت قرونًا انتقالية فى حقيقتها »[1] .

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة ، ١٤٩/١٧.

«وفى هذه الفترة لم تنفض أوروبا كل غبار العصور الوسطى ولم تتخلص من كل مساوئها ولم تتخل كليًّا عن النظرة القروسطية المدرسية للحياة»[1].

فالتغيير في الحضارة الغربية لم ينشأ إلا عبر زمان طويل وبجهود مضنية وصراع يختلط فيه السابق باللاحق ، بل وفي بعض الأحيان يقوم بالتغيير من يُحسب في صف تثبيت الأوضاع القائمة والرؤية والتصور الموجود الآخذ في التحول شيئًا فشيئًا ، وهو ومن يدفعه لتثبيت الأوضاع القائمة لا يعون حقيقة ما يحدث ودلائله .

فتوما الإكويني حاول التوفيق بين العقل والنصوص المسيحية بأمر البابا :

«ولكنه وهو يحاول هذا التوفيق كسب للعقل نصراً مؤزراً سيدوم على مدى الأيام ، فقد قاد العقل أسيراً إلى قلعة الدين ولكنه قضى بانتصاره على عصر الإيمان»[2].

فهذا نموذج كُلف وعمل على تثبيت الأوضاع القائمة عن طريق إعطاء مكانة ثانوية للعقل إلى جانب الكهنوت واللاهوت المسيحي ، ولكن هذه المكانة الثانوية نفسها لم تكن موجودة من قبل ، بل أدخلها هو ، ففتح بها ثغرة في جدار اللاهوت المسيحي المصمت فكان بذلك خطوة أو نصف خطوة في طريق التغيير وهو يعمل على مقاومته ، ودفع به من حيث أراد وقفه .

ويهمنا في المثال قبل كل شيء هو كيفية حدوث التغيير بطريقة تراكمية تختلط فيها الرؤى والنموذج والتصورات السابقة باللاحقة ، ثم تنسلخ عنها في بطء شديد وبصراع وشد وجذب على مدى قرون متطاولة ، على خلاف النموذج التغييري الإسلامي الذي خرج للوجود منهجًا متكاملاً مستقلاً مستقرًّا لا يلتبس بما سبقه ولا يختلط به ، بل ولادة كاملة بصورة انفجارية .

* * *

(١،٢) كرين برنتون : أفكار ورجال ، قصة الفكر الغربى ، ص ٣٢٦ .

obeikandl.com

المنهج والحياة

وما زلنا مع ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ .

﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ رؤية حضارية كاملة ونموذج متكامل وتصور شامل للوجود لم تسبقه أحداث ولا أفكار مهدت له فجاء لإتمامها ، ولا حركة حياة أو تغيرات علمية أو اجتماعية أو اقتصادية أدت لظهوره أو نموه أو تعديله أو استنباطه أو تراكمه ، بل العكس هو الصحيح .

فـ ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ هي نموذج تغييري تفسيري ورؤية شاملة للكون والحياة والإنسان والألوهية ولدت مرة واحدة تامة متكاملة ، ومنها نشأت الأحداث ، وتكونت المجتمعات التي تنطبع بها ، وماجت الحياة اقتصاديًّا واجتماعيًّا وعمرانيًّا وعلميًّا بأثر الطاقة المتدفقة من انفجار هذا النموذج التغييرى واصطبغت بصبغته .

وما نقصده هنا أن الرؤية الشاملة والنموذج التغييري وجدا كاملين متكاملين قبل ، وكانا سببًا ودافعًا ، للتغيرات والتحولات التي حدثت بعدهما على مستوى الحياة بكل صورها ، أخلاقًا واجتماعًا وسياسة واقتصادًا وعمرانًا وعلمًا وحركة دافقة ، أو بصورة أخرى ، النموذج التغييرى والرؤية الإسلامية الشاملة وجدا كـ « ماكيت » ، متكامل أقيمت كل مناحي الحياة واتجاهاتها على نسقه وفي هداه .

في الحضارة الإسلامية ، الثمرة ، بتعبير دكتور حسين مؤنس ، كانت تطبيقًا عمليًّا لمنظومة متكاملة موجودة ومستقرة لم تتبدل ولم تتغير ولم تتدخل الحوادث وتطورات الحياة في إنشائها ، بل المنظومة هي التي أوجدت الحوادث وحركة الحياة وصبغتها .

ماذا يعني هذا ؟

يعني فرقًا جوهريًا ضخمًا بين الرؤية الإسلامية والنموذج الإسلامي وبين غيره من الرؤى والنماذج الحضارية .

ففي الحضارات الأخرى لم تكن هناك رؤية سابقة ولا نموذج يتبع ولا منهج متكامل يسير من يقومون بالتغيير والنقلة على هداه ، بل في الحضارات الأخرى خلاف ذلك تمامًا ومقلوبه هو الصحيح .

فما يحدث هو كالآتي : حدث أو اكتشاف أو صراع في لحظة من الزمان يؤدي إلى تغيير طفيف في أوضاع قائمة ، وبعد حدوث هذا التغير والتحول الطفيف ينظر المفكرون أو الفلاسفة في عصر لاحق وبعد زمان طويل إليه ، فيؤدي هذا التغيير في الحياة وأحداثها إلى تعديل في فهمهم وتصورهم السابق بقدر ضخامة الحدث وأثره ، والرؤية الجديدة في هذا الجانب أو ذاك من النموذج السابق تؤدي هي نفسها مع الوقت إلى أحداث جديدة وصراعات جديدة تنتهي بتعديل آخر للرؤية والنموذج ، وهكذا في دورات لا تنتهي .

إذًا فما يحدث هو أن نموذجًا قديمًا يعدل جزئية فيه حدث أو واقعة ، وهذا التعديل يؤدي بدوره إلى تغيير جزئية أخرى في النموذج ، وهكذا حتى تكتمل الرؤية ويتشكل النموذج الجديد ، والذي يظل غير متكامل ولا شامل لأنه يتكون من جزئيات متناثرة تفتقد الرابط الذي يجمعها ويوحد بينها ، ولأن المنظومة نفسها عرضة للتغيير والتعديل في كل عصر بحدث جديد أو اكتشاف جديد .

كان الغرب في عصوره الوسطى يتبنى نظرية بطليموس في مركزية الأرض للكون ، ذلك أن مركزية الأرض يتبعها مركزية الإنسان الذي خلق الله الكون من أجله ، وأيضًا لأن الأرض هي موضع افتداء المسيح للبشر فلابد أن تكون مركز الكون .

نحن هنا أمام رؤية ونظرة ونسق تصوري للكون وعلاقة الإنسان به وموضعه منه ، وللكون والإنسان يربطهما معًا بالألوهية والمسيح الفادي ، فماذا حدث؟

هل جاءت رؤية جديدة ونموذج متكامل يجمع هذه الأطراف أو يضم الوجود في إطار واحد مختلف أو حتى متشابه ، ثم نشأت عن هذا النموذج أو الإطار حياة أو تغيرات في بناء المجتمع ونسيجه وقواعده وضوابط علاقاته ؟

لا ، وإنما ما حدث هو العكس .

«تم اكتشاف مظاهر شذوذ واضحة للعين المجردة في حركة الكواكب»[1].

فلم تعد الرؤية الموجودة والمنظومة المستقرة قادرة على تفسير مظاهر الكون وظواهره .

وحل كوبرنيكوس هذا الشذوذ بافتراض نموذج مغاير لحركة الكوكب تكون فيه الشمس هي المركز والأرض فيه متحركة حولها .

نحن هنا أمام اكتشاف أو حدث ولم يحدث أي تغيير في المنظومة بعدُ ، فماذا حدث بعد ذلك للرؤية والتصور؟

هز افتراض كوبرنيكوس فكرة أن الأرض هي مركز الكون والهدف من الخلق ، فأدى ذلك إلى أن : **«الإنسان لم يعد هو المخلوق الذي من أجله خلق الله الكون ، وأصبحت السموات قابلة للفناء وغير أبدية»**[2].

والسموات في اللاهوت المسيحي هي المقابل للدار الآخرة في الإسلام(●).

فكأن نظرية كوبرنيكوس العلمية البحت نسفت فكرة كمال السموات وأبديتها التي تعتمدها المسيحية في مقابل دنس الأرض ودناءتها ، إذ أصبحت السموات والأرض شيئًا واحدًا .

---

(١) جيمن بيرك : عندما تغير العالم ، ص ١٧٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٧١ .

(●) انظر صفحة الوفيات بالأهرام .

وبعد كوبر نيكوس بعقود قليلة اهتزت الرؤية القديمة أكثر ، فقد اشتعل نجم فيما يعرف بظاهرة السوبرنوفا وظل مشتعلاً عامين قبل أن يخبو تمامًا ، فترتب على ظهور هذا النجم التساؤل : « **إذا كانت السموات مثالية الكمال لا تتغير ، وإذا كان الله قد أنهى خلقه في اليوم السابع واكتمل خلق الكون ، فمن أين جاء هذا النجم؟** » [1]

وتوالت الأحداث والتغيرات ، وبعدها بعقود أخرى انهار هذا الجزء من النموذج القديم وأطاح به مقراب أو مرقاب (تلسكوب) جاليليو الذي أكد افتراض كوبرنيكوس .

وهكذا انهار جزء من النموذج والرؤية بحدث أو اكتشاف ، وفي مرحلة أخرى موازية أو لاحقة انهار جزء آخر منه بحدث أو اكتشاف آخر، وفى كل مرة تتخلف رؤية بديلة غائمة في بدايتها ، واضحة في نهايتها بعد عشرات السنين أو مئاتها .

وما نريد أن نصل إليه هو أن الحضارة الغربية كان تشكلها وإعادة صياغتها للوجود مرتبطًا بأحداث أو مكتشفات علمية ، هي التي صاغت هذه الرؤية وأوجدت هذا النموذج تدريجيًّا لا أن الرؤية والنموذج هي التي أخرجت هذه الأحداث والأبنية وصيغ الحياة إلى الوجود .

ونوجز فنقول : فى غير الحضارة الإسلامية التغيير هو الذي ينتج الرؤية والنموذج والمنهج ، وتطوراته هي التي تحدد بنية الوجود وما يربطه في العقل وما يتكون فيه من تصورات .

وأما في حضارة الإسلام ، فالنموذج والمنهج والمنظومة ولدت كاملة تامة شاملة ، والتغيير في الواقع وداخل الحياة كان نتاجًا وفرعًا منها ، هي أصله ومنبته ورحمه وطاقته . وهذه سمة وخصيصة فريدة أخرى في الحضارة الإسلامية تتمايز بها عن سائر الحضارات ونماذج التغيير إلى الأرقى .

---

(١) عندما تغير العالم : ص ١٧٨، ١٧٩ .

obeikandl.com

الرؤية في الحضارة الإسلامية سابقة على التغيير ومنهج متكامل له ، وهي في غيرها نتاج تراكمي وجزئي للتغيير نفسه الذي يحدث تلقائيًّا وعشوائيًّا بالتدافع وحركة الحياة وعبر أزمان متطاولة .

وهو ما يفسر لماذا تقدم الغرب في العلوم والتقنية وفشل فشلاً ذريعًا في غيرها ، إذ العلوم هي الشيء القابل للنمو والازدهار بالتراكم وضم الجزئيات .

أما المنهج الشامل والرؤية المتكاملة والتصور التام فلا يمكن الوصول إليها بجزئية من هنا وجزئية من هناك ولا بلصق قطع الأفكار والتصورات (•) ، لأن جمع الجزئيات لا ينشأ كمالاً إلا إذا وجد الإطار العام الذي ينظمها ، ولا يؤسس منظومة ولا منهجًا إلا بالاهتداء إلى الرابط بينها .

وهذا الرابط هو الذي يكون فتحًا حقيقيًّا في مسيرة البشرية يمنح كل جزئية معناها ، ويمنح الجزئيات جميعها الإحكام والتناسق والتوحد الذي يسعى العقل والنفس في طلبه .

وكمثال على الفرق الشاسع بين نمو بالتراكم ورؤية متكاملة شاملة ، وكتوضيح لإمكان الأول وعسر الثاني ، ونكاد نقول استحالته على العقل البشري ، خاصة حين يراد من الرؤية استيعاب الوجود كله ، فإن إسحق نيوتن أعظم العلماء أثرًا في تاريخ الإنسانية ، والعبقرية الفذة بكل المقاييس في مجال العلم والتفكير الجزئي في ظواهر الأشياء وفهم العلاقات والقوانين التي تسير الأفلاك ، لم يستطع أن يرتقي بعقله إلى فهم المعنى الكلي الكامن خلف النظريات التي صاغها والقوانين التي اكتشفها ، فقد : «**أتت تأملاته الفلسفية**

(•) يصدق هذا الحكم حتى داخل العلم نفسه كوحدة مستقلة ، فإن جل النظريات الفاتحة في تاريخ العلم لم تأت من ضم جزئيات متراكمة ولا ترقيع أفكار متجاورة ، وإنما أتت من عقل خلاق أعاد صياغة الجزئيات وضم إليها ما لم يلتفت إليه أحد من قبل، بطريقة ثورية ، فى نسق ومنظومة جديدة ، ومن خلال رؤية غير مسبوقة ولا موجودة في الجزئيات .

(الكلية الشاملة) والميثودولوجية (المنهجية) أمثولة على السذاجة والسطحية»[1].

فرؤية الجزئيات وفهم الظواهر شيء ، وتصور واستيعاب الأنساق الكلية والوصول إلى الإطار الجامع شيء مختلف تمامًا .

- **وقفة توضيحية :**

نتوقف هنا برهة لنَسأل قبل أن نُسأل : ما علاقة هذا كله بإسهام الإسلام في الحضارة الإنسانية؟

وجوابنا هو أن إسهام الإسلام في الحضارة الإنسانية وأثره في مسيرة البشرية هو نفسه الرؤية والمنهج والمنظومة التي ذكرناها .

نعم ، ففضل الإسلام على مسيرة البشرية والإنسان هو هدايتها إلى هذا النموذج والرؤية المتكاملة للألوهية والإنسان والكون والدنيا والآخرة والوحى والعقل والعلم ، جميعًا في نسق واحد ومنظومة متناسقة متجانسة تستوعب الوجود كله في صياغة جميلة باتساقها في النفس ، مقبولة مريحة بإحكامها في العقل ، جامعة بشمولها بينهما ، وهو ما لا معنى له إلا أن هذا النموذج وهذه الرؤية هي الحقيقة ، إذ لم تستطع الوصول إلى هذه النتيجة وتوحيد الوجود رؤية ولا نموذج غيرها .

فكل النماذج والمنظومات غير الإسلامية فشلت في توحيد عناصر الوجود وإيجاد إطار واحد يجمعها .

فلأن النموذج غير الإسلامي يتشكل ويتكون بالأحداث وتفسيرها الجزئي شيئًا فشيئًا وعصرًا بعد عصر فهو مشوه دائمًا ومفتوح أبدًا .

مشوه دائمًا لأنه كمن يريد بناء منزل ، فبدلاً من أن يضع له نموذجًا أو ماكيت متناسق يؤدي كل جزء فيه الغرض والوظيفة منه ، بدلاً من ذلك يبني

---

(١) دكتور يمنى طريف الخولى : العلم والاغتراب والحرية ، مقال في فلسفة العلم من الحتمية إلى اللاحتمية ،ص٢٥ .

غرفة ، ثم يخطر له أن يجعل حمامًا في مكان ما ، وبعدها يرى أنه يحتاج إلى غرفة أخرى ، ثم يدرك بعد حين أن الأمر لا يستقيم دون نوافذ فيهدم أجزاء من الجدران ليفتحها ، ويفاجأ بعدها أنه لابد من مطبخ ، وهكذا .

فالمدى الذي يتشوه به بناء كهذا يُبنى بطريقة كهذه هو القدر نفسه الذي تتشوه به رؤية تتكون بتراكم الحوادث ولصق الأفكار .

وهو مفتوح دائمًا ، وما نقصده بمفتوح هنا أنه غير كامل ، بل يتعدل كل حين حسب تغير الأحداث واتجاه حركة الحياة .

فأوروبا ما قبل النهضة والحضارة ــ التغيير كانت تحوي نموذجًا ورؤية خاطئة للكون لكنها متكاملة ، بمعنى أنها مغلقة ، فهدمت المكتشفات العلمية هذا النموذج وغيرت منه شيئًا فشيئًا ، وأحلت بدائل مكان بعض أجزائه ، ولكنها فشلت في إقامة نموذج متكامل ونسق مترابط يحل محل كل عناصره ويضعها معًا في إطار واحد .

فطبيعة التكون التراكمي الناشئ عن حركة الإنسان دون رؤية منهجية مترابطة أدت إلى فقدان النموذج الغربي للرؤية المتكاملة الشاملة ، وإلى التضارب بين عناصر الوجود ووضعها في مواضع متقابلة لا يجمعها إلا الاختلاف وأحيانًا العداء ، وقبول أحدها يعني الرفض التلقائي للآخر .

بإيجاز : فشل الغرب في إيجاد نموذج بديل للنموذج السابق يوحد الإنسان والكون والوحي والمعرفة والدنيا وما بعد الموت في وحدة متكاملة مترابطة منطقية متجانسة . ولأن : «**التوحيد والربط هو إحدى الرغبات العقلية**»[1] لا نتزيد حين نقول إن كل أزمات الغرب وحضارته ، ومظاهر القلق الروحي والتوتر الميتافيزيقي العميق الذي يعيشه أبنائها وتظهر بعض آثار التنفيس عنه

(١) الفيلسوف وليم جيمس : العقل والدين ، ص ٤٠ .

في حركات الهيبز والبانكس ورفض المجتمع وجماعات الانتحار هي ثمار لفشل هذه الحضارة في توحيد عناصر الوجود وربطها بما يصل بالعقل إلى القبول والراحة وبالنفس إلى الرضا والطمأنينة .

وهذا هو فضل الإسلام وحضارته على الإنسانية كما أسلفنا ، هدايتها إلى هذه المنظومة المتكاملة الشاملة المستوعبة لعناصر الوجود في نسق واحد وإطار واحد جميل ومريح ومقبول ، هو الحقيقة ، يعرفها العقل بإحكامها ، وتعرفها النفس بوجودها فى فطرتها وموافقتها لها .

* * *

obeikandl.com

الوعي بالحضارة وإدراك التغيير

سؤال : هل يعلم من يقومون بالتغيير وإنشاء الحضارة أنهم يغيرون بما يصنعونه وجه العالم ، وهل يدركون الآثار العميقة المترتبة على أعمالهم؟

ولنبسط السؤال : مجموعة من البشر أو جيل من الأجيال يقوم بعمل هائل : **(أ)** في الزمان : **(س)** ينتج عنه سلسلة من التغييرات الشاملة والعميقة في الحياة والمجتمع ورؤية الإنسان للكون ولنفسه ولعناصر الوجود كلها : **(ب) ، (ج) ، (د)** في الأزمنة : **(ص) ، (ع) ، (م)** ، ثم تستقر هذه التغييرات في صورتها الجديدة بعد عشرات السنين من الحدث أو العمل الهائل : **(أ)** أو بعد مئاتها .

هل يعلم من يقومون بـ : **(أ)** أن : **(ب)** و**(ج)** و**(د)** سوف تنتج عنه ، هل وهم في الزمان : **(س)** على وعي وإدراك بما سوف يحدثه ما يفعلونه من آثار وتحولات عميقة وضخمة وإعادة صياغة لفهم البشر للوجود في الزمان : **(ص)** ، و**(ع)** ، و**(م)** ؟

لنر!

الحضارة الغربية أو التحول الغربي كان نتاجًا تراكميًّا بطيئًا للأحداث والمتغيرات اختلط فيه والتبس السابق باللاحق ، وعلى ذلك يصعب تحديد بداية عصر النهضة الغربية وبداية التغير والتحول بدقة .

ومع ذلك يمكن القول إن : «**القرن المفصل بين عصور الغرب الوسيطة وبين عصره الحديث هو القرن الخامس عشر**»[1].

ذلك أن القرن الخامس عشر هو القرن الذي شهد مجموعة من الأحداث الكبرى التي أسهمت مستقبلاً ، وعلى مدى زمني طويل ، في إعادة تكوين

---

(١) أفكار ورجال ، ص ٣٢٣ .

الغرب وصياغة عقله ، وهذه الأحداث الكبرى هي سقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣م ، وهو الحدث الذي فجع أوروبا في عاصمتها وحصن حصونها لتكون هذه الفاجعة بداية استيقاظها ، وسقوط الأندلس في يد الإسبان سنة ١٤٩٢م وانفتاح الغرب على كنوز الإسلام المنهجية والمعرفية فيها ، ثم حركة الكشوف الجغرافية الكبرى وما أحدثته من تغييرات عميقة ومتلاحقة في بنية العالم وتطور الحياة ورؤية الكون .

ونقف عند الحدث الهائل الأخير هذا كمثال على ما نقصده بالسؤال المذكور آنفًا .

الكشوف الجغرافية ، وتحديدًا اكتشاف رأس الرجاء الصالح والطريق البحري إلى الهند واكتشاف العالم الجديد أدى إلى سلسلة من التغييرات الشاملة في الحياة الغربية ، من الرواج المالي والاقتصادي إلى ازدهار البروتستانتية في العالم الجديد ، إلى الخروج على الكنيسة ولاهوتها الذي فشل في معرفة العالم الجديد وتفسير وجوده ، إلى الإيمان بقدرة الإنسان واستغنائه عن الإله وجعله محور الأحداث ومحركها .

الكشوف الجغرافية أدت إلى تحولات شاملة بدأت بالأحداث الآنية ثم المترتبة عليها ، وانتهت بعد عشرات السنين ومئاتها بالأفكار والعقائد ، فأسهمت بذلك في هدم الرؤية القديمة وتكوين الرؤية الجديدة المنسلخة منها .

فهل كان من قاموا بهذه الكشوف يدركون هذه الآثار العميقة والشاملة لها في حياة الغرب وتطوره ، وفي تكوين عقائده وأفكاره وفهمه الجديد للوجود؟

في يوميات كرستوفر كولمبس ورسائله وتقاريره هو وكبار مرافقيه لا تخلو صفحة من ذكر آمالهم فى العثور على الذهب فيما يرتادونه ويكتشفونه من جزر .

ففي يوم ١٤٩٢/١٠/١٣م ، وهو اليوم التالي لوصوله إلى جزر الهند الغربية يخبرنا كولمبس نفسه في يومياته بما يبغيه من مغامرته : «**اجتهدت لمعرفة**

ما إذا كان هناك ذهب . . . لا أرغب في التوقف عن الذهاب إلى أماكن أبعد ، بل أرغب في اكتشاف المزيد من الجزر والذهاب إليها بحثًا عن الذهب»[1].

وأما الغاية الأسمى التي كان يبغيها كولمبس ويجد في البحث عن الذهب من أجل تحقيقها فهي تجهيز حملة صليبية من أجل استعادة أورشليم !!

فيخبرنا كولمبس في يومياته التي سجلها يوم ١٤٩٢/١٢/٢٦م أنه : «**يأمل في العثور على الذهب بكميات كبيرة حتى يتسنى للملكين فرناندو وإيزابيلا الاستعداد والاتجاه إلى فتح الديار المقدسة**»[2].

وفي رسالة إلى البابا يخبره كولمبس أنه : «**لقد جرى الاضطلاع بهذه المهمة بقصد استخدام ما سوف يتم كسبه منها في رد الديار المقدسة إلى الكنيسة المقدسة**»[3].

فلم يكن في ذهن كولمبس ولا من أهداف رحلته تغيير بنية العالم ، ولا هو كان على وعي بما سوف يحدثه اكتشاف العالم الجديد من آثار شاملة ومتوالدة في الغرب وإعادة صياغة وتكوين للعالم ، بل ولم يكن حتى على علم بأنه يكتشف عالمًا جديدًا ، وإنما : «**ظل حتى آخر ساعة في حياته يؤكد أنه نزل في أرض آسيا ، وأنه إذا واصل السير غربا سيبلغ نهر الجانج**»[4].

كل ما كان في وعي كولمبس وإدراكه هو أن يصل إلى الهند والشرق من طريق بعيد عن سيطرة الدولة العثمانية ، فرحلته الكشفية لم تكن سوى مغامرة للتجارة وجمع الأموال ، وأقصى طموحاته كانت حلمه أن يتمكن برحلته من تجهيز حملة لاستعادة الأرض المقدسة باسم إسبانيا الكاثوليكية .

---

(١) تزفيتان تودوروف : فتح أمريكا ، مسألة الآخر ، ص ٢٤ .

(٢،٣) فتح أمريكا ، ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٤) سيتفان زفايج : ماجلان قاهر البحار ، ص ٢٤، ٢٥ .

فكان من عجائب الأقدار أنه أراد خدمة الكاثوليكية وإعلاء راياتها ، فكان ما فعله سببًا في ازدهار البروتستانتية في العالم الجديد بعيدًا عن سطوة الكنيسة .

وفاسكو داجاما الذي تمكن من إكمال اكتشاف الطريق البحري والوصول إلى الهند عبر رأس الرجاء الصالح ، يقول بحار مرافق له في بداية يومياته عن رحلته : «**بسم الرب ، آمين ، في سنة ١٤٩٧م ، وفي عهد مليكنا مانويل صدرت الأوامر لأربع سفن بالخروج في رحلة كشفية بحثًا عن البهارات(•)، وكان فاسكو داجاما هو القائد الأعلى لهذه السفن**»(١).

ثم تطور الأمر وارتفعت الغاية قليلاً عند ألفونسو البوكريكه ، خليفة داجاما على الأساطيل والمملكة البرتغالية عبر البحار .

فبعد اكتشاف الطريق إلى الهند استولى البوكريكه على مالقة وأرسل رسالتين إلى ملك البرتغال اقترح في الأولى : «**إسقاط قسم من السلسلة الجبلية لإثيوبيا في النيل الأزرق وقطع مجراه وتحويل تيار النيل من الشمال إلى الشرق ، وكان القصد من المشروع حرمان مصر من مياه النيل وتحويل القاهرة وكل المنطقة المجاورة لها إلى صحراء**»(٢).

وفي الرسالة الثانية اقترح البوكريكه : «**إنزال قوات من الخيالة في ينبع على ساحل البحر الأحمر تحت ستار مدفعية السفن ، والاستيلاء على**

(•) مسألة البهارات التي كانت سبباً في اكتشاف العالم الجديد وهدم العالم القديم تحتاج إلى إيضاح ، اكتشف الأوربيون أن قليلاً من التوابل يعطي الطعام نكهة لذيذة ، فأصبحوا لا يأكلون طعاماً إلا إذا كان مخلوطاً بالتوابل ، وهذا الإقبال الهائل على التوابل رفع أسعارها في الغرب إلى درجة أن كانت تباع بالحبة الواحدة وبوزنها فضة، وكانت قيمة التوابل كقيمة المعادن النفيسة يدفعها الناس ثمناً لأرض يشترونها أو بائنة لعروس ، وكانت الحكومات تتخذها أساساً لميزانية وارداتها ، هذا في الوقت الذي لم تكن تساوي شيئاً في بلادها الأصلية .

(١) يوميات رحلة فاسكو داجاما إلى الهند ، ص ٢٧ .

(٢) بونداريفسكى : الغرب ضد العالم الإسلامي ، ص ٢٨ .

المدينة بزحف صاعق ونبش مدفن النبي محمد هناك ونقل نعشه إلى لشبونة ، لأجل التقدم فيما بعد إلى الحكام المسلمين باقتراح مقايضته بقبر المسيح والقدس وبعض أراضي الشرق الأدنى الأخرى»[1].

فداجاما لم يكن يقصد إلا تنمية تجارة التوابل والابتعاد عن مناطق سيطرة العالم الإسلامي ، وخليفته البوكريكه طور فكرته من الابتعاد عن عالم الإسلام إلى مهاجمته ومحاولة خنقه ، لكن لم يكن أي منهما على وعي بما سوف يحدثه اكتشافه من آثار متوالدة ومتراكمة في حركة الحياة ، وفي إعادة تكوين الغرب وصياغة عقله وأفكاره ومعتقداته .

فمن العجائب أيضًا أن أقصى ما كان يدور في عقلهما وآخر طموحاتهما هو هدم عالم الإسلام ، فكان اكتشافهما وسلسلة التغييرات التي ولَّدها سببًا في هدم العالم الذي خرجا منه واكتشفا ما اكتشفا للدفاع عنه وتثبيته وتوطيده .

وربما كان أثر الكشوف الجغرافية على الحالة الاقتصادية للعالم الإسلامي كبيرًا ومؤثرًا وموجعًا ، لكنه لا يقارن بما أحدثته هذه الكشوف من تأثيرات وتغييرات عميقه شاملة أفضت إلى هدم النموذج والتصور الغربي للوجود ونسف أصوله وبعث الدوافع إلى تكوين رؤية بديلة ونموذج جديد .

إذًا نجيب على السؤال الذي بدأنا به ، من يقومون بالتغيير ويسهمون بأعمالهم في إنشاء العالم الجديد والرؤية والمنظومة التي يحملها لايدركون معنى ما يفعلونه في وقت حدوثه ولا يعون آثاره الضخمة على مسيرة البشرية ومسار الإنسانية ، فضلاً عن أن يكونوا قد خططوا لهذه المنظومة أو دبروا لحدوث هذه الآثار .

بل وفي أحيان كثيرة تكون هذه الآثار والتحولات على خلاف ما قام من أحدثوا التغيير من أجله وما نهضوا لإحداثه ، وإنما يتم تصنيفهم في صف التغيير وكأحد عوامله فيما بعد ، بعد اكتمال التغيير والنظر للخلف للبحث عن أصوله وبداياته .

---

(١) الغرب ضد العالم الإسلامي ، ص ٢٩ .

وهكذا ، كما يقول الأستاذ مالك بن نبي نقلاً عن المؤرخ جوزو : «**يتقدم الإنسان في تنفيذ خطة لم تساور خياله لحظة ، بل لم يعرفها قط ، فهو العامل الذكي الذي يقوم باختياره بعمل ليس له ، فهو لا يعرفه ولا يدركه إلا ريثما يتم حدوثه في الواقع ، بل إن إدراكه آنذاك لا يكون إلا ناقصًا مبتورًا(•)**»[1].

وهذا هو أحد الفروق الجوهرية العميقة بين الحضارة والنموذج الإسلامي وبين غيره من النماذج والرؤى ، وهي الفروق التي لا يمكن فهم الحضارة الإسلامية وتقييمها ومعرفة مدى تميزها واستقلالها إلا بمعرفتها وإدراك آثارها في صياغة النموذج الإسلامي للحضارة .

ففي كل الحضارات لا يدرك أصحاب التغيير ومن يحركون الأحداث أنهم يغيرون أو يعيدون بما يفعلون صياغة الكون والإنسان ومعنى المعرفة ووسائلها ، بل والوجود كله ، وإنما يدرك أنهم فعلوا ذلك من يأتي بعدهم بأزمان متطاولة في مرحلة التأريخ والتحليل والتقييم والبحث عن صياغة للنتائج المتراكمة والمتغيرات المتوالدة .

ولا يوجد لما ذكرناه استثناء إلا استثناءً واحدًا فقط ، هو الحضارة الإسلامية أو النموذج والمنظومة الإسلامية للخلق والخالق والألوهية والوحي والكون والمعرفة التي ولدت بطريقة انفجارية ، وكانت هذه المنظومة هي السابقة على تكوين الحياة التي خرجت منها وهي طاقة هذه التكوين .

(•) ما يقصده ابن نبي وجوزو في المثال الذي ضربه هو أن شخصاً ، تيمور لنك ، يقوم بفعل في جهة ، مهاجمة العثمانيين ، فيؤدي إلى عدم حدوث فعل آخر ، مهاجمة العثمانيين أوروبا ، فيسهم هذا الشخص بفعله في عدم تعويق التغيير ، نهضة أوروبا ، التي تحدث في مكان آخر بعيداً عن مركز فعله وتأثيره ، أي الإسهام بصورته السلبية ، وما نقصده نحن الصورة الإيجابية ، وهو أن صاحب الفعل الذي يحدث التغيير والنهضة ويحرك الأحداث ، الأوروبيون ، لا يكون هو نفسه على وعي بأن ما يفعله هو تغيير وإنشاء لحضارة جديدة ولا يكون على إدراك لآثاره الضخمة عبر الزمان .

(١) وجهة العالم الإسلامي ، ص ١٩٧ .

والذين طبقوا هذا النموذج وصبغوا الحياة بهذه الرؤية وغيروا نظرة الإنسان لكل شيء حوله وعلاقته به وموقعه منه ، كانوا هم الاستثناء الوحيد في تاريخ الحضارات الذي كان يغير الوجود ، وهم يعلمون أنهم يغيرونه ويقصدون أن يغيروه ، ويدركون الآثار الهائلة وسلسلة التحولات المتوالية المتدافعة التي ستنشأ عن هذا التغيير في إدراك الإنسان للخالق والألوهية وللخلق والكون والمعرفة ولنفسه وللحياة وإعمارها وللآخرة والطريق إليها .

فالمسلمون الأوائل ، ولاحظ أننا منذ البدء حتى هذه اللحظة نتحدث بصيغة علمانية لا دخل فيها للإيمان أو الموقف المسبق ، فهذه كلها حقائق تاريخية غير قابلة للدحض ، المسلمون الأوائل هم النموذج الوحيد الذي غير العالم وهو واع لما يفعله ، مدرك لآثاره ، قاصد لها ، ويحمل في عقله ونفسه منهجًا متكاملاً ونموذجًا تامًّا يعمل على تفريغ آثاره في الواقع وتحويل الحياة وتشكيلها به وفي ضوئه وعلى هداه .

اشتكى بعض أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام جهد مكافحة العدو ، وقال رجل : يا رسول الله ، أما يأتي علينا يوم نأمن ونضع السلاح[1]؟

فنزل قوله تعالى :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ (النور:٥٥).

فلننظر !

أولاً : تبديل وتغيير ، أي حضارة ، من الضيق والحصار إلى الاستخلاف ، ومن الضعف والقهر إلى التمكين والغلبة ، ومن الخوف إلى الأمن والطمأنينة .

«والآية عامة لأمة محمد ﷺ غير مخصوصة»[2]

(٢،١) تفسير القرطبي ، ٤٨٣٥/٦ .

وذلك كله بالطاقة التي تدفقت مع الانفجار الكبير :

﴿ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾

وثانيًا : هذه الحضارة هي الوحيدة التي نشأت والنموذج التغييري الفريد الذي تكون بوعد مسبق حدد سمات الحضارة وهيكلها وطاقتها الدافعة .

وثالثًا : هذا الوعد جاء في أتون الخوف والضعف ، لا في ساعة القوة والغلبة والنصر ، فليس استشرافًا ولا نتيجة منطقية .

ورابعًا : الذين نزل فيهم ولهم هذا الوعد كانوا على إدراك ووعي وهم يحققون معنى الاستخلاف في الأرض أنهم يغيرون الوجود حولهم ، وعلى إدراك أنهم يطبقون منهجًا يسير بالبشرية نحو الكمال والرقي كما أراده الوعد وبيَّنه .

وخامسًا : هذا ليس وعدًا عابرًا ، بل هو وعد يقين مؤكد سبقه وعد آخر :

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾ (الزمر: ٧٤).

«وأكثر المفسرين قالوا إنها أرض الجنة ، وقيل إنها أرض الدنيا على التقديم والتأخير»[1]

ولا مانع أن يجتمع المعنيان ، وسورة الزمر مكية ، ففي أتون الاضطهاد والتعذيب جاء الوعد بوراثة أرض الدنيا ووراثة أرض الجنة ، فالذين كانوا يعذبون في قيظ مكة وشعابها كانوا واعين مدركين موقنين وهم في المحنة والابتلاء أنه سوف يأتي عليهم يوم يغيرون فيه واقع الأشياء وحال الدنيا ، وأنهم سيمتلكون بالمنهج والمنظومة التي أنزلت عليهم الأرض التى يعذبون فيها وكل أرض ترنو إليها أبصارهم .

---

(١) تفسير القرطبى ، ٥٩٣٣/٨ .

قال خباب بن الأرت : أتيت رسول الله ﷺ وهو متوسد برده في ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة شديدة فقلت : يا رسول الله ، ألا تدعو الله ؟ فقعد وهو محمر وجهه فقال : « **إن كان من قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه ، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق اثنين وما يصرفه ذلك عن دينه ، وليُتمن الله ذلك الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه** »[1].

مرة أخرى ، التغير والتحول ، والوعد بهما ، والثقة في هذا الوعد والإيقان بتحققه في شدة البلاء والجهد والضعف .

فهذه هي الحضارة الوحيدة والنموذج التغييري الفريد الذي نشأ بوعد مسبق ، وعن معرفة تامة ووعي بالتغيير ، وقصد له ورغبة فيه ، في نور منهج متكامل ومنظومة فريدة غير مسبوقة ولا متطورة من سابقة لها ، ولا متلبسة بما قبلها ، ولا تحركها أو تعدلها الأحداث ، بل هي التي تنشئها .

ونستحضر عبارة ربعي بن عامر مرة أخرى : « **إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة** » .

لم ينفر البدوي القادم من بطن الصحراء بحثًا عن الترف والتأنق ، ولا عن المال والذهب ، ولا عن رغبة همجية في هدم دولة معادية ، وإنما ذهب يحمل منهجًا ونموذجًا يريد به تغيير حال العباد ، أي تحضيرهم ، وتعديل معنى سلطة الحاكم ، وإعادة صياغة معنى الدنيا والآخرة في أذهان العباد .

عبارة ربعي بن عامر هي نسق ومنظومة مترابطة وفهم متكامل للعلاقة بين العباد ورب العباد والوحي والدنيا والآخرة ، وهي رؤية لنفسه يدرك بها

---

(١) متفق عليه ، واللفظ للبخارى .

ما يفعله ويعي ما يغيره ويقصده ، ويعلم يقينًا ما سيؤدي إليه ما يفعله وما يقصده وما يدركه من آثار وتأثيرات ، بل ومن منجزات وثمار .

كيف لا وهو يعي قول المصطفى عليه الصلاة والسلام : «**إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها**»[1].

فالفرق الشاسع المساحة الهائل الدلالة والمعنى بين الحضارة الإسلامية ونموذجها وبين غيرها من الحضارات والنماذج أن من حملوا عبء إقامة الحضارة وآباء التغيير كانوا يعلمون تمام العلم ويعون وعيًا فائقًا معنى ما يقومون به من أفعال وأحداث وما لها من آثار في الزمان .

وليس على من يريد التأكد إلا المقارنة بين عقلية ربعي بن عامر وأهدافه ورؤيته لما يفعله ووعيه به وبين أمثالها عند كرستوفر كولمبس وفاسكو داجاما .

* * *

(١) رواه مسلم .

obeikandl.com

بين الكمال والنقص

أحدث كاتب أمريكي من أصل ياباني ، هو فرانسيس فوكوياما ، ضجة كبيرة حين أصدر كتابة : نهاية التاريخ ، والذي فسر فيه سقوط الاتحاد السوفيتى والعالم الاشتراكي بأنه انتصار للرأسمالية والنموذج الليبرالي الغربي ، وإعلان لسيادته على العالم ، وإنهاء للتاريخ باعتباره صراعًا بين النماذج الحضارية المختلفة .

وما يهمنا في هذه الرؤية هو الإحساس بالكمال الذي تنطلق منه والشعور بالسيادة والتفوق ، أو كما يسميها وليم فولبرابت : غطرسة القوة ، وتنبه أنه سماها غطرسة القوة وليس صحة المنهج .

وعلى خلاف ما قد يظن البعض ، ليست هذه فكرة جديدة ، بل هي فكرة أصيلة في الغرب وشعور يلازمه ويبرز مع اكتمال كل دورة تغيير وما يعقب هذا الاكتمال أو يواكبه من رخاء مادي وحياتي أو اجتماعي واقتصادي أو ما يتلوه من سيطرة وتفوق على الآخر .

فعلى سبيل المثال : «**اعتبر رجال الطبقة الوسطى الإنجليز أن التاريخ انتهى بالنسبة لهم في الشئون الخارجية بانتهاء معركة ووترلو سنة ١٨٤٥م، وفي الشئون الداخلية بصدور قانون الإصلاح العظيم سنة ١٨٣٢م ، وفي الشئون الإمبراطورية بالقضاء على ثورة الهند سنة ١٨٥٩م ، وفي شمال الولايات المتحدة كانت الطبقة المتوسطة ترى أن التاريخ انتهى حين تملكت الأقاليم الغربية وانتصرت الولايات الشمالية المتحدة على الجنوب في الحرب الأهلية ، وفى ألمانيا ، أو بروسيا على الأقل ، كانت هذه الطبقة نفسها ترى أن التاريخ وصل إلى هذه النهاية الدائمة بهزيمة فرنسا وتأسيس الرايخ الثاني سنة ١٨٧١م**»[1].

---

(١) أرنولد توينبي : الحضارة في الميزان ، ص ٢٥، ٢٦ .

وما نريد أن نصل إليه هو أن الرؤية والنموذج التغييري والمنظومة الشاملة غير موجودة في الحضارات غير الإسلامية ، وإنما هي دائمًا تتشكل ، أو في حالة تكوُّن غير منتهية وغير مكتملة ، وهذا التشكل والتكون يحدث على امتداد زمان الحضارة بتأثير الأحداث وحركة الحياة والمكتشفات .

فالنموذج والمنظومة يفترض أنهما موجودان دائمًا في الأمام ، وأنهما غير كاملين ولا تامين ولا شاملين ، لأن الكمال والتمام والشمول معناه أن أحداث الحياة قد توقفت والمكتشفات قد انتهت وأن الحركة التي تعدل النموذج وتغير الرؤية والمنظومة باستمرار قد وصلت إلى حالة جمود وسكون .

وهو ما لا يحدث ، لأن الحياة لا تتوقف ، والأحداث مستمرة ، والمكتشفات تتوالى ، والحركة دافقة ، ومن ثَم فالنموذج مفتوح وقابل للتغيير والتعديل دائمًا ، وهذا هو أصل القلق والتوتر العميق الذي تعانيه الحضارة الغربية ، أفرادًا وجماعات ومجتمعات .

وهاهنا المفارقة الغريبة التي سنجدها مقلوبة في الحضارة الإسلامية .

فرغم عدم اكتمال النموذج والمنظومة الغربية للكون والإنسان والحياة وقابليتها للتعديل والتغيير باستمرار ، فهناك إحساس بالكمال وشعور بالتمام ينتاب أبناء هذه الحضارة في قمة موجة من موجات التغيير على مستوى الأحداث والحركة والحياة وليس على مستوى الرؤى والمعتقدات والمناهج ، ولفترات قصيرة .

ولنبسط الأمر كما فعلنا سابقًا .

الحدث : **(أ)** يقع في الزمان : **(س)** فيؤدي إلى سلسلة من التغييرات إلى الأرقى من منظور الحضارة المعنية : **(ب)** ، **(ج)** ، **(د)** في أزمان مختلفة : **(ص)** ، **(ع)** ، **(م)** ، ثم يأتي أبناء النتاج النهائي لهذه السلسلة من التغييرات : **(د)** ومعاصروها في الزمان : **(م)** وينظرون إلى الوضع الذي بدأ منه التغيير : **(أ)** في الزمان : **(س)** ، ويقارنون بين ما كان وما صار ، فيتلبسهم شعور نفسي وقناعة عقلية أن التغيير وصل في عهدهم إلى الكمال والنهاية .

وبعد ذلك يصبح الحدث : **(د)** في الزمان : (م) هو نفسه مقدمة لموجة تغيير أخرى ينهار معها الإحساس بالكمال والنهاية .

إذًا المفارقة الغريبة التي نقصدها هي أن النموذج والمنظومة والرؤية التي يُفهم بها الوجود تظل ، ولابد أن تظل ، ناقصة ويُنتظر الوصول إليها في الأمام الزماني الذي لا يأتي ، ولن يأتي أبدًا ، لأن كل أمام في الزمان لابد أن يتلوه أمام وتكون فيه حركة وأحداث .

وفي الوقت الذي يتسم فيه النموذج وما يحمله من رؤية تغييرية وتفسيرية للأشياء بالنقص الملازم له المكون لبنيته ، يؤدي اكتمال موجة تغيير حياتي أو وصولها إلى نهايتها إلى الإحساس بالكمال والنهاية ، وأنه ليس بعد ذلك بعد ، ثم يكتشف أصحاب الإحساس بالنهاية والتمام فيما بعد أنها لم تكن سوى مجرد بداية في موجة أخرى .

فثمة فجوة بين النموذج والمنظومة الناقصة دائمًا وبين الإحساس الزائف بالكمال والوصول إلى الحالة الأرقى على مستوى الحياة وحركتها .

والعكس صحيح تمامًا في النموذج الإسلامي للحضارة .

فعلى خلاف النموذج والمنظومة الغربية الناقصة دائمًا ، النموذج الإسلامي ونسقه ومنظومته للوجود ولدت شاملة تامة كاملة لا تقبل التعديل ولا التغيير بالأحداث ولا حركة الحياة ، بل هي التي تنشئها وتحميها وتوجهها .

ووظيفة البشر في هذه المنظومة المتكاملة هو استيعابها استيعابًا شاملاً وتنظيم المجتمعات وتسيير وقائع الحياة وأحداثها على نسقها وفي هداها .

والمفارقة في الحضارة الإسلامية ، التي هى مقلوب المفارقة في الحضارات الأخرى ، هي أنه رغم أن النموذج والمنظومة تامة كاملة شاملة مغلقة لا تبديل فيها ولا تعديل ، فلا يوجد فرد مسلم ولا جيل مسلم ولا مجتمع مسلم ، نتاج المنظومة ، في أى زمان أو أي مكان ، يشعر أو يمكن أن يشعر أنه قد وصل إلى الكمال أو الغاية التي ليس بعدها كمال ولا غاية .

بل هناك شعور نفسي وقناعة عقلية ملازمة للمسلم أنه في حالة تقصير دائم يحتاج إلى الجبر أو التغيير إلى الأفضل .

ويبدأ غرس هذا الشعور وهذه القناعة في نفس المسلم وعقله من عبادته اليومية ، فيصلي المسلم الفرائض ويستشعر دائمًا أنه يحتاج إلى جبر بالنوافل وتغيير إلى الأفضل لما في عبادته من نقص .

فإذا صلى النوافل لازمه ، أو يجب أن يلازمه ، إحساس بالنقص والتقصير مهما كانت النوافل والقربات التي يؤديها ، لأن إحساسه بالكمال في العبادة هو نفسه نقص فيها ، إذ هو عُجب واغترار يودي به ويهلكه .

فسبيله إلى الكمال هو أن يكون شاعرًا دائمًا بالتقصير ، وشعوره بالكمال في أي لحظة يجعله يحكم هو على نفسه بالتقصير الذي يحتاج إلى تغيير إلى الأفضل ، والأفضل أن يحس بالتقصير، والكمال عند شعوره بالنقص والتقصير لا يكون كمالاً من ذاته ، بل باعترافه الدائم لله عز وجل بتقصيره ، فيكون جبر النقص وتمام الكمال من الله عز وجل وليس منه .

﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ﴾ (الشورى:٢٣) .

﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ (آل عمران:١٩٥).

«لن يدخل أحدكم الجنة بعمله»[1].

ولا يوجد جيل مسلم يمكن أن يصاب بالإحساس بالكمال وبلوغ الغاية ، لأنه دائمًا ينظر إلى النموذج والمنظومة على أنها الكمال لأنها إلهية ، وتطبيقه لها لابد أن يكون ناقصًا غير كامل لأنه بشري .

فمصدر النموذج والمنظومة قد حتّم كماله وحتم نقص من يستهدون به مهما بلغت درجة الرقي أو الازدهار ، لأن مقياس الرقي والازدهار ليس المنجزات ،

---

(١) متفق عليه .

وإنما القدرة على فهم المنظومة وتطبيقها كما يجب ، وأحد علامات صحة الفهم والتطبيق هو الشعور بالتقصير إلى جوارها .

ولا يوجد مجتمع مسلم إلا ويستشعر النقص ، أيًّا كان رقيه أو تقدمه أو سيطرته وقوته ، وهو ينظر إلى التطبيق النموذجي للمنظومة والمنهج في القرون الأولى ، خير القرون ، والعهد النبوي والخلافة الراشدة خاصة .

فإذا جئنا إلى العهد النبوي نفسه ، وهو الذي يقاس عليه ، رأينا أبناءه ورجاله ، وهم وما أنتجوه التطبيق المثالي الذي لا خطأ فيه للمنظومة بسبب عصمة الوحي الذي يتنزل عليهم ووجود النبي عليه الصلاة والسلام المصحح المرشد دائمًا بين ظهرانيهم ، لو نظرنا إليهم لرأيناهم في إحساس دائم بالنقص والتقصير لأن المنظومة تعلمهم أن كل ما يصلوا إليه هو نعمة من الله عز وجل تستوجب شكرها :

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ (النحل:٥٣)

وأن ما قد يمتلكونه من قوة هو ممنوح قابل للسلب ، وأن ما عندهم من إيمان ، أيا كان قدره ، هو في جناب كمال الألوهية ونعمها قليل يستوجب الزيادة دائمًا :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ ﴾ (النساء:١٣٦) .

وإذا أحس أحدهم أو بعضهم بالكمال تعلمهم المنظومة ومنهجها أنه كِبْر يقصر به في حق نفسه ويحرمها النعيم ، وفي حق ربه الذي العظمة إزاره والكبرياء رداؤه وحده .

وإذا امتلك العلم والسطوة فلابد أن يفهم ويوقن أنه :

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ (يوسف:٧٦) .

وتعلمه المنظومة والمنهج أن أصغر الكائنات وأقلها شأنًا ربما أوتي من العلم ما لم يؤته من سُخرت له الإنس والجن والطير والريح :

﴿ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ﴾ (النمل:٢٢) .

وتحذرهم المنظومة أن الإحساس بالكمال والاغترار بالرقي هو مقدمة الهلكة والمحو .

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ (القصص:٧٨) . . . ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ (القصص:٨١) .

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا ﴾

(التوبة:٢٥) .

فكل شيء في البناء يجعل المسلم ، فردًا أو جماعة ، مستشعرًا التقصير موقنًا به ، أيًّا ما كانت مرتبة عمله أو درجة ما بلغه .

وليست مصادفة ولا زيادة أو حشوًا تلك العبارة العلامة والمنهج وعنوان العقلية والنفسية التي يختم بها المؤلف أو الباحث أو المحقق المسلم عمله : **والله أعلم** .

فإذا وصلنا إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، وهو الذي سألت عنه السيدة عائشة رضي الله عنها فقالت : «**كان خلقه القرآن**»[1]، أي أنه ﷺ لم يكن يطبق المنظومة أو يحققها وينزلها على الواقع ، بل كان هو هي أو هو التجسيد الحي لها في صورة بشرية ، لو وصلنا إليه عليه الصلاة والسلام لرأيناه ، وهو المنظومة نفسها في صورتها العملية ، وهو المعصوم من الخطأ بالوحي ، والذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، لرأيناه مستشعرًا التقصير في جناب كمال الله وسابغ فضله : «**لن يدخل أحدكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته**»[2].

---

(١) رواه النسائي .

(٢) متفق عليه .

وحتى وهو عليه الصلاة والسلام في ذروة النصر والفتح الأعظم يجب أن يقف ويستشعر التقصير وإن كان العمل تامًّا كاملاً لا نقص فيه ، لأن الشعور بالتقصير رفعة في الدرجات ومنزلة رفيعة في الجنات :

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾ (النصر: ١-٣).

ونوجز فنقول : الأمر سلسلة متصلة الحلقات ، النبي عليه الصلاة والسلام يستشعر التقصير في جناب الله عز وجل لأن هذه مرتبة العبد الشكور، وصحابته رضوان الله عليهم يستشعرون التقصير إلى جواره ﷺ ، يوجل ما يوجل وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، والمسلمون بعدهم يستشعرون التقصير إلى جوار هذا الجيل الفريد الذي اختاره الله عز وجل لإنزال وحيه عليه وتكليفه وتشريفه بحمل دعوته ، والجميع شاعرون بالتقصير في جوار المنظومة التي تعلمهم أن الإحساس والاعتراف بالتقصير خطوة في طريق نوال الكمال الذي ليس في الدنيا .

وهاهنا المفارقة الغريبة .

فالنموذج التغييري والمنظومة كاملة متكاملة ، على خلاف حضارة الغرب ناقصة الرؤية فاقدة النموذج ، والمسلمون شاعرون دائمًا بالتقصير الذي يتطلب السعي معه إلى الكمال ، لأن أحدًا منهم لن يصل إلى التجسيد الكامل للمنهج والمنظومة فردًا ، وهو النبي عليه الصلاة والسلام ، ولا جماعة ومجتمعًا ، وهو العهد النبوي ، وأيضًا على خلاف الغرب الذي يصيبه الإحساس بالكمال من آن لآخر تبعًا لاكتمال دورة تغيير أو نهاية موجة حياة .

وننبه في ثنايا هذا الفرق إلى فارق آخر .

فنموذج الحضارة الغربية أمامها لا تراه أبدًا ولا تصل إليه .

وقد يلتبس الأمر بالبعض أو يتعمد التلبيس ، فيرى أو يدعي أن نموذج الحضارة الإسلامية ومنظومتها موجودة دائمًا في الخلف ، فهي تشد المسلمين

إلى الماضي وتقيد حاضرهم وتكبل مستقبلهم ، كما يقول بعض الغربيين والمستغربين .

لذا لزم أن ننبه حتى لا يقع أحد في هذا الفخ .

فليس نموذج الغرب ومنظومته في الأمام ، ونموذج الإسلام ومنظومته التي يستمد منها المسلمون الرؤية في الخلف ، لأن نموذج الإسلام ومنظومته مطلقة من الزمان مرتفعة عن الجهة .

وإذا كان لابد من التقريب حتى يستقر الأمر في الأذهان ، فمنظومة الإسلام ونموذجه بالنسبة لأمته ، في كل عصر وزمان ، وفي كل جيل ، وفي كل مكان ، ليس أمامها ولا خلفها ولكنه أعلاها ، لأن هذه المنظومة ولدت بأمر علوى : ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ .

* * *

obeikandl.com